

المبحث الثاني

- فهم شخصية الرسول ﷺ (النبوية)

وأريد في بداية هذا المبحث أن أمهد له بكلمة تتعلق بطبيعة الرسالة المحمدية، وهى: العموم، قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّالنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١) وما كانت هذه الرسالة العامة لأحد من الرسل قبله، فموسى - عليه السلام - أرسل نبنى إسرائيل خاصة، لقد اقتضت دعوته على بنى إسرائيل، وقد ذهب موسى وهارون - عليهما السلام - إلى فرعون ليرسل معهما بنى إسرائيل فقالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (٢)

وعيسى - عليه السلام - إنما أرسل إلى بنى إسرائيل، ولم يحاول سيدنا عيسى أن يبشر بدعوته خارج فلسطين، ولم يحاول أن يجاهد من أجلها.

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٧ وانظر: قصص القرآن لمحمد أحمد عادل وآخرين ص ١٣٧ فما بعدها.

أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه أرسل إلى الناس جميعا، إنه أرسل إلى الناس جميعا من حيث المكان، وأرسل إليهم من حيث الزمان، فهو الرسول الدائم زمانا ومكانا^(١)

بقول - تعالى :- ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾

إن هذا التمهيد الموجز لا بد منه لمعرفة شخصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «النبوية» من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها، للتأكد من أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - لم يكن مجرد عبقرى سمت به عبقريته بين قومه، ولكنه قبل ذلك رسول أيدته الله - تعالى - بوحى من عنده ويتوفى من لدنه.

إن حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واضحة بينة منذ أن خرج إلى الوجود، وحتى قبل ميلاده - صلى الله عليه وسلم - بشرت به الكتب السماوية: التوراة والإنجيل، فقد حكى لنا القرآن الكريم ما جاء على لسان نبي الله عيسى بن مريم - عليه السلام -:

وَرَأَى قَالِيْبُ بْنُ أَبِي سَرْمٍ يَتَّبِعُ إِسْرَءِيلَ بْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْكَرْمَلِ فَقَالَ: لَقَدْ آتَى بَنُو الْقُرَيْشِ
وَمِنْهُمْ أَبُو سُرَيْبٍ بْنُ مَعْدِي أَسْمَاءَ ابْنَةَ الْحَارِثِ (١٣)

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، الإمام الأكبر د/ عبد الحلیم محمود ص ١٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٣) سورة الصف، الآية: ٦.

فنسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أعظم أنساب العرب.

روى الترمذى عن العباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقتهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني من خير الفرقتين، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا»^(١) ومن المعلوم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولد يتيما حيث مات والده وهو فى بطن أمه، ولم يمكث كثيرا مع أمه لخروجه من مكة مع مرضعته حليلة السعدية - رضى الله عنها - إلى بادية بنى سعد، وحدث لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثير من الإرهاصات وهو مع مرضعته السيدة حليلة السعدية مما يبشر بمكانة هذا النبى الكريم عند الخالق - جل وعلا - ويعود إلى مكة بعد حادثة شق الصدر، وتخرج به أمه إلى المدينة لزيارة قبر أبيه، وليتعرّف على أهله وذوى قرباه من بنى النجار، وفى طريق العودة إلى مكة مرضت أمّنة بالأبواء^(٢).

ثم تولى أمر تربيته جده عبد المطلب، وقد ذكر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأنه تولى أمره فى يمه فقال - جل وعلا -: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ﴾^(٣)

(١) قال السيوطى فى جامعه الصغير: حديث صحيح. وانظر الاصطفا فى سيرة المصطفى ﷺ. محمد نهبان الحجاز ج ١ ص ١١.

(٢) الأبواء: قرية بين المدينة والحجفة، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلا. انظر معجم البلدان لياقوت الحموى ج ١ ص ٧٩، ٨٠.

(٣) سورة الضحى، الآيتان: ٦، ٧.

لقد شهد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالفضل وعلو المنزلة كل منافس ومعاند، وكل زنديق وجاحد، ولم يجد أحد من خصومه شيئاً يزرى برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى قول أو فعل - صلى الله عليه وسلم - فلم يظفر واحد من أئد أعدائه بهفوة فى جد أو هزل، فلم يجد إلى ذلك سيلاً، ولله الحمد والمنة.

أى فضل أعظم من فضل تشهد به الخصدة والأعداء؟!

شهد الآم بغضله حتى أعداءه والفضل ما شهدت به الأعداء^(١).

والرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - بلغ من الفضائل غاياتها. واستكمل لغايات الأمور أدواتها، أن يكون لزعامة العالم مؤهلاً، وقد صدق الله الكريم حيث يقول عنه فى محكم كتابه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢).

ولقد شهد للنبي - صلى الله عليه وسلم - ألد أعدائه وخصومه قديماً (النضر بن الحارث) من بنى عبد الدار، حيث قال: (كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب. وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر!! لا والله ما هو بساحر)^(٣).

(١) الاصطفا فى سيرة المصطفى ج ١ ص ٦٧ فما بعدها.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) انظر كتاب (نور البينين) للحفص بن بك ص ١٧.

وهناك كثير من شهادات الأعداء لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكيفيه فخرا وشرفا شهادة خالقه وبارئه فى كتابه الكريم فى كثير من آياته البينات، والذي أريد أن أركز عليه فى هذا البحث هو أنه لا ينبغى لمسلم أن يحاول فهم شخصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أنه عبقرى عظيم، أو قائد خطير، أو داهية محنك، فهذا يخالف الحقائق الكبرى التى كانت تزخر بها حياة المصطفى - صلى الله عليه وسلم -.

ومما لا شك فيه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان متصفا بكل صفات سمو والكمال الخلقى والعقلى والنفسى، ولكن كل ذلك إنما ينبع من أنه رسول من عند الله، ومن العبث أن نتجاهل هذا الأصل مطلقا، والرد على مثل هذه المحاولات الفاشلة إنما يكون بلفت النظر إلى الأصل.

كما أود أن ألفت النظر أيضا إلى أن المسلم لا ينبغى له أن يتصور أن المعجزة الوحيدة فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - إنما هى القرآن، مادام أنه لا ينكر أن له - عليه الصلاة والسلام - سيرة يحاول أن يفهم حياته من خلالها. وأما إنكار وجود هذه السيرة فهو أمر لا مبرر له، والذي ينكر السيرة فإن عليه أن ينكر معجزة القرآن أيضا؛ إذ لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا معجزة القرآن. وأما تأويل هذا

طبق ما يستهوى النفس فهو إسفاف غريب فى تصنع البحث والفهم، لا يقدم عليه من كان معتزاً بعقله . كريماً على نفسه^(١) .

وإننى أسوق هذا الحديث لأننا نجد من المسلمين من ينكر المعجزات الأخرى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير القرآن . فقد حرص بعضهم على تضيق نطاق الغيبيات التى لا تتفق مع علمية الغرب المادية،^(٢) فقد راح ينكر كل معجزة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويستثنى من هذا - كما استثنوا - معجزة القرآن الكريم .

ونحن المسلمين لا ننكر أن معجزته الكبرى هى القرآن الكريم، ولكننا ننكر حصر معجزاته - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك .

والقرآن الكريم من أعظم معجزاته - صلى الله عليه وسلم - لأنه جاء به فى زمن البلغاء والفصحاء، وسألهم جميعاً أن يأتوا بمثله، قال - تعالى -:

﴿ قُلْ لَّيِّنَ أَنْزَلْنَاهُ فِي الْقُرْآنِ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْزِلْ فِي سُنُوبٍ مِمَّنْ بَيْنَ يَدَيْهِ غَيْرِ مُبِينٍ ﴾^(٣) .

(١) فقه السيرة د/ محمد سعيد رمضان البوطى ص ٩ ، ١٠ بتصرف .

(٢) انظر كتاب (حياة محمد: محمد حسين هيكل ص ٣٤) وكتاب (الوحي المحمدى للأستاذ رشيد رضا، وعبقريه محمد لعباس محمود العقاد، ومحمد والقوى المضادة لمحمد خلق الله) وغيرهم من الكتاب .

انظر منهج العقلية الحديثة فى التفسير د/ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الروحى ص ٧٧٢ فما بعدها بتصرف .

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٨ .

فأعجزهم^(١) فسألهم سورة منه^(٢) بحيث تصدق على سورة الكوثر فعجزوا.

فما اقتصر على تعجيزهم حتى أضاف إليهم أكثر منهم وهم الجن. ومع ذلك التوبيخ الذى يأباه ذوو المروءات، ويثير الحميات - لا سيما عند العرب العرباء ذوى الأنفة والكبرياء -.

وقد اشتمل القرآن الكريم على مثل سورة الكوثر سبعة آلاف مرة. فيكون سبعة آلاف معجزة، وفيه من المعجزات وجوه كثيرة جدا^(٣) وليس هذا موضع التوسع فيها.

وقد ثبت لرسول الله الكريم - صلى الله عليه وسلم - معجزات أخرى غير القرآن فمن معجزاته - صلى الله عليه وسلم - انشقاق القمر^(٤).

وهو أعظم من انشقاق البحر؛ لأن الماء فى كل حين يفترق من حيث الجملة.

(١) ورد بعض معارضات تدل على السخف والخلب العقلى. وهى مذكورة فى بعض كتب علوم القرآن.

انظر مثلاً: الإتيان فى علوم القرآن للسيوطى ج ٢ ص ٣٢٤ فما بعدها.

(٢) بنص القرآن ﴿أم يقولون اقتراء قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يونس، آية: ٣٨.

(٣) انظر وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم. (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقراقى ص ٣٦٠) فما بعدها.

(٤) انشقاق القمر ورد فى القرآن بصريح اللفظ قال - تعالى -: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ الآية.

وأجرى الله الماء من أصابعه^(١) وهو أعظم من إجراء الماء من الحجر؛ لأن الحجر مكان الماء من حيث الجملة، وكلمه الحصى^(٢) والذراع^(٣).

ومن معجزاته - صلى الله عليه وسلم - (تكثر الطعام) ببركته ودعائه، وقد حدث هذا مرات كثيرة، وأقر به من صحابته الذين لمسوه وعلموه علم اليقين، ومنها (حنين الجذع) الذي كان يضع

(١) نبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ وردت فيه روايات عدة في الصحيح. والراجع أن هذه المعجزة قد تكررت مرات عدة. فقد وقعت بالزوراء عند السوق. وردت في يوم الحديبية وفي غزوة تبوك. وقد روى ذلك من الصحابة: أنس وجابر وابن مسعود. ويمكن الوقوف على تفصيل هذه الواقعة في الشفا ج ١ ص ٥٥٠ فما بعدها، راجع الزرقافي على الموطأ ١/٦٥.

(٢) تسبج الحصى وردت فيه روايات عدة تدل على تكرار الواقعة؛ فقد روى عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «لما استقبلني جبريل - عليه السلام - بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله» رواه البزار في مسنده.

وعن جابر بن سمرة، عنه - صلى الله عليه وسلم -: «إننى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على» (صحيح مسلم) وعن أنس - رضى الله عنه - قال: أخذ - صلى الله عليه وسلم - كفا من حصى فبحن فى يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى سمعت السبح، ثم صبهن فى يد أبى بكر فبحن، ثم فى أيدينا فما سبحن. انظر تاريخ ابن عساكر. وانظر الشفا للقاضى عياض ج ١ ص ٥٨٨ - ٥٩١.

(٣) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن يهودية أهدت - للنبي - صلى الله عليه وسلم - بخير شاة مصلية سمتها، فأكل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها وأكل القوم. . فقال: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتنى أنها مسمومة» فمات بشر بن البراء. وقال لليهودية: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: إن كنت نبيا لم يضرك ما صنعت، وإن كنت ملكا أرحنا الناس منك.

أخرجه الشيخان.

يده - صلى الله عليه وسلم - حين يخضب المسلمين على منبره،
 فاستغنى عنه - صلى الله عليه وسلم - وتركه فسمع لذلك الجذع
 حنين بصوت كصوت الناقة إذا حنت على ولدها، حتى ارتج
 المسجد ببيكاء الناس لذلك؛ ولا زال يحن حتى نزل الرسول -
 صلى الله عليه وسلم - عن المنبر وضمه وحضنه فسكن^(١)
 ومنها (الإسراء والمعراج)^(٢).

ومنها: « ما وقع لسراقة بجواده، ولبسه حلى كسرى^(٣) ».
 ومعجزاته - صلى الله عليه وسلم - كثيرة ليس هذا موضع
 استيعابها، وقد أجمع أولياؤه وأعداؤه على أنه من أصدق الناس
 وأكرمهم، وأشجعهم وأكثرهم أمانة وإعراضا عن الدنيا وترغيبا
 فى الآخرة. لم يختلف فى هذه الصفات اثنان ممن خالطه من
 الكفار والمسلمين. وهذه صفات لا تجتمع إلا لنبي، فمن كفر به
 يلزمه ألا يعتقد بنبوة غيره من الأنبياء^(٤).

وخلاصة القول:-

فى فهم شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجب
 أن نعتقد الآتى:

(١) الاصطفا فى سيرة المصطفى ج ٣ ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) روى قصة الإسراء والمعراج البخارى، صحيح البخارى ج ١ ص ١٥٠ وصحيح مسلم ج ١
 ص ١٥٠، وذكره السيوطى فى الدر المنثور ج ٤ ص ١٤٠ ومجمع الزوائد للهيثمى ج ١
 ص ٧٦

(٣) الاصطفا فى سيرة المصطفى ج ٣ ص ٢٣٣.

(٤) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافى ص ٣٦٤ - ٣٦٥: بتصرف.

١- علينا أن نفهم شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها؛ للتأكد من أنه رسول الله - تعالى - أيده بالوحي .

٢- وصف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالعبقريّة المجردة فيه تَجَنُّ على حقه ومكانته - صلى الله عليه وسلم - والهدف من هذا الوصف هو إنكار الرسالة، وإن لم يصرح أصحاب هذا الوصف به .

٣- أن تصوّر حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أنها حياة بشرية عادية أمر يخالف الواقع، ويطمس الحقيقة الناصعة؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - بشر، ولكنه يوحى إليه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ ﴾ (١)

٤- أن إنكار المعجزات والخوارق في سيرته - صلى الله عليه وسلم - كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات والآيات التي يؤيد الله بها في العادة أنبياءه الصادقين أمر لا مبرر له سوى الإنكار فحسب .

إن منبع هذه النظرية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما قال بها بعض المستشرقين والباحثين الأجانب من أمثال

(١) سورة الكهف، الآية ١١٠.

غوستاف لوبون، وأوجست كونت، وهيوم، وجولدزيهر وغيرهم. وأساس هذه النظرية عندهم وسببها: هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أولاً؛ ذلك لأن الإيمان بالله - عز وجل - إذا استقر في النفس، سهل الإيمان بكل شيء.

ثم تلقف هذه النظرية منهم أناس من المسلمين، جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب، دون أى سبب سوى الافتتان بزخرف خداعهم، وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية، التى هبت فى أنحاء أوروبا^(١).

٥- أن أبرز صفة فى حياة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - هى «النبوة» لا شك ولا ريب، والنبوة هى من المعانى الغيبية التى لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة.

وإذا فإن معنى المعجزة الخارقة قائم فى أصل كيانه - عليه الصلاة والسلام - فلا يتمنى نفى المعجزات^(٢) والخوارق عنه - صلى الله عليه وسلم - إلا يهدم معنى النبوة نفسها، ونسخها من

(١) فقه السيرة د/ سعيد رمضان البوطى ص ١٠٦.

(٢) المعجزات: هى أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدى، سالم عن المعارضة. وهى إما حسية، تشاهد بالبصر أو تسمع، كخروج الناقة من الصخرة، وانقلاب العصا حية، وكلام الجمادات.

وإما معنوية تشاهد بالبصيرة، كمعجزة القرآن. وقد أوتى نبينا ﷺ من كل ذلك. انظر أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة المنصورة للشيخ حافظ بن أحمد حكى ض ٨٢. خرج أحاديثه تنعيم أحمد خليل السلفى.

حياته ، وذلك يساوي إنكار الدين .

٦- إذا نظرنا فى حياته - صلى الله عليه وسلم - بتدبر وتأمل
اتضح لنا جلينا أن الله - جل علاه - أجرى على يدي
المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - كثيرا من المعجزات
التي لا مناص من قبولها، ولا مجال لردّها وإنكارها؛ لأنها
نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التي ترتقي بالفكر
والعقل إلى درجة القطع واليقين .

٧- وأخيرا إن الذى خلق المعجزات وأجراها على يدي الرسول -
صلى الله عليه وسلم - هو الله - تبارك وتعالى - خالق
الكون وما فيه من معجزات .

وإن الحق الذى يجب أن يفهمه كل عاقل أن المألوف وغير
المألوف معجزة فى أصله . فالكواكب معجزة، وحركة الأفلاك
معجزة، وقانون الجاذبية معجزة، والمجموعة العصبية فى الإنسان
معجزة، والدورة الدموية فيه معجزة، والروح التى فيه معجزة،
والإنسان نفسه معجزة، والله يهدى من يشاء؛ فنسأله - تعالى -
الهداية إلى صراطه المستقيم، إنه سميع مجيب .